نزار نجـار

الموت ... مرتين

لعنة الله عليهم !..

انهم دائما لا يفرقون بين المستشفى وساحات القتال .. ولكن ما ذنب حماد الراعي حتى يموت مرتين .. ما ذنبه ياخالتي جميلة ؟.

اهل قرية الرحمانية كلهم يحبون حمادا ، ويقدرونه ، وهم يتذكرونه كيف كان غلاما .. يجلس امام دكان محمود العطار..حتى الزبائن كانت تحبه لرقة خلقه . ولم يسمعه احد يزعق امام انسان ،كان عندئذ يتيم الاب ، بل ان واحدا من اهل الرحمانية لا يعرف ، ولا يذكر له ابا ، اما امه جميلة فامرأة ضائعة كما يقولون .. تخدم في البيوت ، وتتشاجر دائما مع النساء بسبب وبدون سبب .. ولما عيره الاولاد الخبثاء بأمه جميلة ، وبأنها تخدم في البيوت ، انخلع قلبه من الحزن .. ثم تقدم بالشكوى الى مركز الناحية ، وصرح هناك بأن اسم والدته الصحيح هو فاطمة اصميدة وليس جميلة المبروك كما هو مذكور في سجلات الناحية ..

★★★

اهل الرحمانية عندما سمعوا ان حماد الراعي قد قتل في الحرب، وان جثته قد نقلوها الى المستشفى تم يعد واحد منهم يدري يمينه من شماله ، فكانهم ـ والعياذ بالله ـ قد ادركوا يوم القيامة ،فرحموا عليه ، وتأسفوا على شبابه .. شيخ الجامع نفسه اخبرهم في وقار انه لو عاش لكان له مستقبل عظيم .

ولكن حماد الراعي وحده كان قد مات، بل ومات مرتين .. فذائفهم هدمت الجناح الشرقي من المستشفى ، حيث وضعوا الجثة، صار وجهه مقطوعا عن جسده ، وكان مشوها محفورا بالجراح وشخوب الدم .. ولكن حماد الراعي لم يعد بحاجة الى قبر .. لان انقاض المستشفى انهت كل شيء .

★★★

وانت يا خالتي جميلة .. يا ام حماد .. تذكرين يوم غادر حماد القرية .. كانت ثيابه عتيقة مغبرة .. لكنه كان فتيا بقوة الصخر .. وكان فرحا بالعسكرية لانه سيرتاح من قرص البراغيث في البيت المسقوف بالشوك والتراب والحطب والفئران ..

عندما جاءك اخر مرة ، اطل عليك بثيابه الجديدة .. كم فرحت يومئذ .. ولكن الحزن جاء يراودك سريعا .. لان الاجازة قصيرة .. ثماني واربعون ساعة يا ولدي .. صار يحدثك عن العسكرية .. آه يا امي العسكرية موت .. ولكنها عز .. عندما يبدأ الهجوم الكبير سأقطع رؤوس الاعداء .. العسكرية ليست لعبا .. العسكرية موت.. آه لو كنت قائدا .. ولكنني جندي بسيط لست ببال احد .. كانت زينب تلطي ليلا في الزقاق عندما تسمع بمجيء حماد الراعي . ولكنه ـ يا ولدي ـ لم يكن يفكر بأن يلتقي بها على البيادر .. او في الخرابة المهجورة .. لم يكن يفكر بذلك ابدا ..

وحين قالت له خالتي جميلة :

ـ آن لك ان تستريح ، وان تكمل نصف دينك ..

بسط يده ، وضحك :

ـ من اين ؟! .. انا جندي بسيط ، استيقظ بأمر .. وانام بأمر .. واتدرب بأمر .. وآكل بأمر .. انزل المدينة بأمر .. واغادرها بأمر .. واتزوج بأمر .. الزواج غير مسموح يا امي .. ثم لماذا اظلم بنات الناس ! ..

★★★

بعد صمت يومين ..

تعالت الاصوات فجأة في قرية الرحمانية ..

كانت أم حماد جالسة في الساحة ، وحولها نسوة ينحن ويصرخن .. كان اهل القرية قد تجمعوا حولها ايضا .. ولكنها لم تكن تبكي .. لاول مرة احس الجميع بأن هذه المرأة تختلف عن نساء القرية كلها .. وعندما كثر الكلام ، صاح محمود العطار يطلب منهم الاحتشام ، واحترام المقام .. وان يتكلم واحد عما يريد الكل ان يتحدثوا فيه ..

قالت : ـ يا ولدي لا اريد ان تقولوا شيئا .. ولكن خذوا لي بثأر حماد ..

سكت الحاضرون ، ولم يعرفوا ماذا يقولون ..

صاحت : ـ كثير ! . كثير !.. يا جماعة !.

انتم لا تستطيعون ان تأخذوا بثاره .. والله ان الذين قتلوه مرضى من الخوف ..

انهم يخافون خيالاتهم نفسها ..

صاح اكثر من رجل :

ـ يا خالتي .. الحرب لم تنته .. ونحن لن نكون قاعدين ! !...

★★★

ما زالت خالتي جميلة تنتظر الحرب ..

وكلما مرت بساحة القرية ، كان الحاضرون يطأطئون رؤوسهم امامها ..

كأنما يدارون شيئا ..

والحرب لم تبدأ مرة اخرى حتى اليوم ..

حماة ـ سورية